في ذكرى رحيل الشيخ عبد الكريم الماشطة

أنصار السلام مسيرة عطاء معطرة بذكريات الوطن

أحمد الناجي

تعاملت جميع الحكومات المتعاقبة بعد وفاة الشيخ عبد الكريم الماشطة في ٣ أيلول ١٩٥٩، وبالذات منذ انقلاب ١٩٦٣ الأسود، بجفاء واضح مع أسم هذا الرجل وتاريخه الشخصي، ومرد ذلك راجع الى أن خطابه نابع من صميم الواقع، يناجي وجدان الإنسان، ويحرض على تحرير طاقاته الكامنة، ما جعل اطروحاته على تماس واضح مع الأشياء المنسية والمهدورة التي مثلت بنظر الحكومات اختراقاً للمألوف، وعند تتبع مواقفه نجدها متعارضة مع حكومات العهد الملكي، وطيلة حياته لم يألُ جهداً في مقارعة أعراف التسلط والاستبداد والاستعباد، واصطفافه محسوم بجانب مصالح جماهير الشعب، لذا زاد مدافعاً بأنشطة متعددة في سبيل صيانة الجمهورية الفتية، وهو سبب كاف على رأس قائمة الممنوعات طيلة عقود زمن الانكسارات.

تشكلت شخصية الشيخ الماشطة بفعل تعاضد الظروف الموضوعية المتمثلة في الطفولة المترفة، وأجواء البيت المتفتحة على الثقافة والعلم، والرعاية الأبوية بتوفير فرصة الدراسة المبكرة في كتاتيب مدينة الحلة، ومن ثم متابعة الدراسة بالحوزة العلمية في النجف الاشرف، وتكامل هذا التعاضد مع قدرات الشيخ الماشطة الذاتية المتمثلة بالنبوغ والذهنية الثاقبة والرغبة في التعلم، ما أهله لان يكون عالماً دينياً متبحراً بشؤون الدين الإسلامي، وضليعاً بشجون الحياة الإنسانية، فأصبح بذلك قادراً على تحديد مواقفه وآرائه وأفكاره الشخصية بما يتطابق مع ما اكتنزه من خلفية ثقافية وفكرية لاسيما الدروس الأولى التي اغترفها من بحور شيخه الملا كاظم الخراساني معلم الأحرار زمن إعلان الدستور، وناهلاً مما تراكم في أعماق نفسه وأغوار مداركه من قيم الرسالة المحمدية السمحاء، والأفكار والمتبنيات المتناغمة معها من حصاد تجارب الحياة والفكر الإنساني، وتبدى انعكاس ذلك الخزين المعرفي في تفاصيل حياته، مرتسماً في جرأة التعبير عن توجهاته الوطنية ومواقفه الاجتماعية وتطلعاته التنويرية من دون خشية، فلم يبالِ حتى وان كانت تنطلق به خارج السرب، ومخالفة لما هو متعارف عليه أو سائد بين الناس في مجتمعه البدائي البعيد عن منجز البشرية ومعطيات الحضارة الإنسانية.

وحسم الشيخ الماشطة بصفته عالماً دينياً متبحراً تحديد مساره مبكراً في الاتجاه التحرري والتجديدي، ولم تأت أفكاره وتصوراته طيلة حياته من مواقع مستقلة عن المسلمات الدينية، بل خاض غمار هذا المسار الوعر المليء بالمطبات متمسكاً بها، ومنهجه الاجتهاد حول الجزئيات، فقدم معالجات مستفيضة في مجالات الفكر والحياة حق له أن يكون علماً من أعلام العراق التنويريين، ومن دعاة الإصلاح والحرية الذين حملوا هموم الفكر والإنسان والوطن بين جوانحهم في مسيرة العراق الوطنية، ومنها قضية السلم التي أصبحت من متبنياته الأساسية.

انبثاق حركة السلم العالمي

تكللت مساعي محبي السلام في العالم في انبثاق حركة السلم العالمي تعبيراً عن تلك الحاجة الإنسانية الى تجنيب شعوب العالم كوارث الحروب، وهدر الطاقات والثروات والأموال، ففي آب ١٩٤٨، عقد في فروتسواف (بولونيا) مؤتمر عالمي للمثقفين للدفاع عن السلام حضره عدد من كبار المثقفين مثل الفيلسوف البريطاني جوليان هكسلي وعالمة الفيزياء الفرنسية ايرينا كوري والرسام العالمي بيكاسو والشاعر الفرنسي بول ايلوار والكاتب السوفيتي إيليا اهرنبرغ والبرازيلي جورج امادو. وكان العربي الوحيد الذي حضر المؤتمر شاعر العرب الكبير محمد مهدي الجواهري، وجرى في المؤتمر الحديث عن ضرورة تنظيم حركة للدفاع عن السلام وتحريم السلاح النووي، وقد أعاد هؤلاء المثقفون وغيرهم عقد مؤتمرهم في العام التالي، ونشأ عن هذين المؤتمرين مجلس السلم العالمي الذي عقد مؤتمره الأول في أكتوبر ١٩٥٠، واختير الشاعر محمد مهدي الجواهري ليكون عضوا فيه .

انطلاقة مجلس السلم العراقي

نشرت (صدى الأهالي) جريدة الحزب الوطني الديمقراطي في أواخر حزيران ١٩٥٠، نداء السلام حول تحريم استخدام القنبلة الذرية، موقعاً من قبل الشاعر محمد مهدي الجواهري على صفحتها الأولى، ومن ثم نشرت الجريدة نفسها بتاريخ (٩) تموز في صفحة المحليات (نداء استوكهولم للدفاع عن السلام) مع أسماء مؤيديه من مختلف أنحاء العالم والبلاد العربية عدا العراق إذ لم يرد في النداء العالمي ذكر احد العراقيين، وفي اليوم التالي نشر أول تأييد للنداء بشكل مختصر من السليمانية، وخلال شهر تموز بدأت الجريدة بنشر ما يردها من تأييد من أنصار السلام .

وكان الشيخ عبد الكريم الماشطة رجل الدين الأول في العراق الذي لبى نداء السلم الأول، ووقع على بنوده الخمسة الصادرة عن اجتماع استوكهولم٣ . وجاءت استجابته سريعة لذلك النداء، لأنه وجد فيه انعكاساً لأفكاره، وتطابقاً مع مبادئه الإنسانية في نبذ الحروب، وخفض التسلح، وتحويل ثروات الشعوب نحو البناء، ومعالجة الفقر والجهل والأمية، وتوفير الخدمات الاجتماعية للمواطن العراقي بصورة خاصة، وللإنسانية بصورة عامة، ولم تكن أنشطته في دعم حركة أنصار السلم مقصورة بحدود تلك الاستجابة، بل سعى مع الكثير من الوطنيين العراقيين لكسب الأصوات المناصرة لـ(نداء ستوكهولم)، والداعمة لقضية السلام.

واستمرت أنشطة الشيخ الماشطة بداية الخمسينيات في الدعوة الى قضية السلام بالتنسيق مع لجنة تحضيرية في بغداد، الى أن جاءت الظروف المناسبة، ونضجت ضرورة قيام تنظيم لها، فتواصل مع نخبة من خيرة الوطنيين المخلصين لقضية شعبهم ووطنهم، ولقضية السلام في العالم أجمع، من مختلف الاتجاهات السياسية والانتماءات القومية والدينية لعقد المؤتمر التأسيسي.

المؤتمر التأسيسي الأول

انعقد المؤتمر التأسيسي لحركة أنصار السلم ببغداد في ١٤ تموز ١٩٥٤، وخصني الأستاذ حامد الحمداني الذي حضر مندوباً عن الموصل برسالة أشار فيها الى دور الشيخ الماشطة وحضوره الفاعل في ذلك المؤتمر قائلاً (لقد كان لي أول لقاء بالشيخ الماشطة بداية في الفندق٤ الذي نزلنا فيه صدفة في شارع الرشيد، وكنت على إطلاع مسبق بشخصية الشيخ الجليل ونشاطاته الوطنية، وتم التعارف بيننا منذ اللحظات الأولى وقضينا ثلاثة أيام في ذلك الفندق، وكنا نلتقي في أوقات الفراغ، وكان يسعدني أن اقضي مع هذه الشخصية الكبيرة أطول وقت ممكن استمع الى أحاديثه القيمة التي كانت تأخذ منا الوقت دون أن نشعر به، وحضرنا المؤتمر معاً، وقد حظي الشيخ الماشطة باهتمام كبير من قبل كافة أعضاء المؤتمر، وذلك لما يتمتع به من احترام كبير ليس من أبناء الحلة فحسب، بل من كافة أبناء الشعب العراقي، وقد ألقى الشيخ الماشطة كلمة وفد الحلة في المؤتمر وحظي بتثمين كبير، وتتميز شخصية الماشطة بالتواضع الجم وسعة الإطلاع بالإضافة إلى روحه الوطنية الوثابة وإيمانه بالسلام والتعايش بين الشعوب والديمقراطية).

وعقد المؤتمر التأسيسي في دار الطبيب أحمد الجلبي الواقعة في منطقة أم العظام، حيث التأم الى مشتمل بجانب الدار كل من أعضاء اللجنة التحضيرية، ومندوبي المحافظات، وضم المؤتمر (١٠٣) مندوبين من الشخصيات الوطنية المعروفة من مختلف الاتجاهات السياسية، ومنهم الدكتور طلعت الشيباني والشيخ عبد الكريم الماشطة والمحامي توفيق منير وصفاء الحافظ والطبيب أحمد الجلبي والدكتور فاروق عبد الجليل برتو والدكتورة نزيهة الدليمي والشاعر عبد الله كوران وصلاح خالص والفنان يوسف العاني وكمال عمر نظمي وإبراهيم أحمد وعطشان ضيلول الازيرجاوي وعبد اللطيف الحاج محمد مطلب وحامد الحمداني وإسماعيل رشيد ونظيمة عبد الباقي (أم غصوب) وعلي ياسين وعبد المجيد الونداوي ومحمد زياد الاغا وإسماعيل النجار وإسماعيل حقي شاويس وأنعام العبايجي ومحمد الشبيبي وجلال الاوقاتي وشيخ لطيف شيخ محمود الحفيد ومظهر العزاوي وعواد علي النجم وخدوري خدوري ونائل سمحيري وعامر عبد الله وغضبان السعد وعبد الرزاق الشيخ علي. وقد افتتح الشيخ الماشطة بصوته الدافئ الواثق أعمال المؤتمر الذي ترأسه المحامي توفيق منير، وتتالت بعده خطابات وفود المحافظات، وألقى أعضاء اللجنة التحضيرية تقارير عن الوضع في العراق والوطن العربي والعالم وعن القضايا التنظيمية، وساهم كثير من المندوبين في مناقشة القضايا المطروحة بإيجاز وهدوء، وانتهى الاجتماع في اليوم الأول بتشكيل لجان متعددة، قامت بدراسة المسائل الموكلة لها في اليوم التالي، واتخذت القرارات والتوصيات اللازمة بشأنها، وتم رفعها إلى اجتماع اليوم الثالث، حيث جرت صباحاً مناقشة تقارير اللجان وتوصياتها، وأجريت التعديلات على بعض التوصيات، وتم إقرار برنامج العمل لحركة أنصار السلم، ثم ألقى الأستاذ توفيق منير بعد ذلك كلمة دعا فيها الجميع إلى العمل بأقصى جهد ونشاط، والقيام بكل الفعاليات الممكنة لفرض الحركة بشكل علني، ثم قام بتعليق شعار (حمامة السلام) على صدور المشاركين، وفي المساء أقيمت حفلة عشاء لمندوبي المؤتمر في منزل الشخصية الوطنية الراحل (عبد الجليل برتو) والد الدكتور فاروق برغم أن صاحب الدار كان خارج بغداد، تخللتها لقاءات تعارف بين أعضاء المؤتمر وجرى تبادل الأفكار والآراء، واختتم الشيخ الوقور عبد الكريم الماشطة المؤتمر بكلمة حث فيها الحاضرين على القيام بمهماتهم من اجل تحقيق أهداف المؤتمر بالدعوة الى أفكار السلام، والكفاح من اجل الاستقلال الوطني، وإلغاء المعاهدة وطرد القوات البريطانية، والانسحاب من الكتلة الإسترلينية وإحباط ضم العراق الى الأحلاف العسكرية وخلق جبهة عربية ضد الصهيونية والنضال من اجل التحرر الوطني والقومي، وعلى الصعيد العالمي من اجل نبذ الحروب، وتحريم استخدام القنبلة الذرية، والوقوف بوجه الأحلاف والتكتلات العسكرية التي تهدد السلم العالمي وأمن الشعوب، وتبقي سطوة الهيمنة الإمبريالية.

وأصدر المؤتمر الأول لأنصار السلام العراقي بيانا تضمن تلك المفاهيم والأفكار المعبرة عن توجهات الحركة، وعكس المؤتمر مظاهر رائعة تجلت فيها وحدة الرأي والمسار بين العديد من فصائل الحركة الوطنية العراقية، مفصحة عن ضرورات النضال المشترك.

وما أن اختتم المؤتمر وانفضت أعماله حتى شاع خبر انعقاده بين الجماهير، وتسرب أيضاً الى الحكومة، فأحدث الخبر وقعاً ثقيلاً عليها، وبادرت مسرعة مستنفرة أجهزتها الأمنية باحثة عن المندوبين في كل مكان، وفعلاً استطاعت في اليوم التالي اعتقال الشيخ عبد الكريم الماشطة في الكاظمية، وأحالته الى محاكم الجزاء مع (٢٤) من أعضاء المجلس الوطني لحركة السلم في العراق، ممن وقعوا على مقررات مؤتمر أنصار السلم الأول، باعتبارهم متهمين بالعمل ضد نظامها المندثر.

وقد قامت لجنة معاونة العدالة بالدفاع عنهم، وهي لجنة من المحامين الشيوعيين وغير الشيوعيين من العناصر الديمقراطية والوطنية٦، وقد برأت المحكمة ساحتهم بالاستناد إلى مادة قانونية لا تعتبر ذلك الاجتماع الموسع مخالفة قانونية، وبحسب ما نقل لي السيد فخري مطلوب، وهو من الحليين الذين عملوا مع الشيخ الماشطة في حركة أنصار السلم، أنه سمع من الشيخ الماشطة شخصياً، بأن الثغرة القانونية التي حالت دون مقاضاتهم ناجمة عن كون قانون تنظيم الاجتماعات العامة المعمول به لغاية ذلك التاريخ هو قانون عثماني.

حركة أنصار السلم في الحلة

أثمرت جهود الشيخ الماشطة منذ بداية عقد الخمسينيات، ودوره البارز في نشر بذار أفكار السلم، المقرونة بمساندة الوطنيين والتقدميين في الحلة، تأسيس قاعدة جماهيرية واسعة لحركة أنصار السلم في المدينة، ساهمت في مختلف مراحل النضال الوطني بنشاطات ملحوظة، وكانت جموع المتظاهرين في الحلة عند اندلاع الانتفاضة الجماهيرية في تشرين الثاني ١٩٥٢، تردد شعار حركة أنصار السلم، (لا حرب ولا فاشية... بل سلم وديمقراطية) الذي ما زال محفوراً في ذاكرة البعض من أنصار السلم الحليين.

ويمكننا تسليط الضوء على تلك الفترة لمعرفة مديات تأثير أنصار السلم، والتقاط بعض المؤشرات عن نشاطاتهم من خلال رصد انعكاساتها في ما ورد بكتاب (مع الشيوعيين في سجونهم) لعبد الجبار أيوب الذي شغل في بداية حزيران ١٩٥٤، وظيفة مدير سجن الحلة، وبقى فيها لمدة أكثر من سنتين، والمعروف عنه بحسب رأي جاسم الحلوائي بأنه عدو الشيوعية رقم أثنين في العراق باعتبار إن نوري السعيد كان رقم واحد ، وقد وصف مدير السجن الذي جاء منقولاً من الموصل أجواء الحلة عند مباشرته بالوظيفة، قائلاً (وإذا بالجو الصاخب فيها أشد ارزاماً من في حدباء العراق، وإذا بي أجدني في بهرة أنصار السلام) ، ولعل ما نعتهم به في مواضع متفرقة من صفات كالأوباش أو العصابة أو المفاليك، تحمل مدلولات واضحة عن احتدام الصراع بين السلطة الرجعية الحاكمة ممثلة بتوجهات مدير السجن، والقوى الوطنية والتي كانت حركة أنصار السلم جزءاً منها، ومن خلال ما كتبه مدير السجن يمكننا استقراء مجريات تلك الصراعات لأنها بمثابة مرآة عاكسة وما بين السطور ليس بخاف على أحد، وقد أدرج في كتابه قائمة بأسماء (٧٦) معتقلاً من الشيوعيين وأنصار السلم من مناطق الفرات الأوسط، منهم من أهل الحلة (١٩) مناضلاً هم (رضا صالح الشويلية، شهيد محمد سعيد (استشهد في انقلاب ٦٣ الأسود)، عبيد جواد أبو غريبة، برهان سلمان، جواد كاظم، محسن نادي علي، عبد الوهاب شاكر، عباس كاظم علوش، محمد جاسم، فاضل محيي الشلاه، شناوه ناجي، زهير عبد اللطيف، علي عبد الرضا، جواد عبد الحسين، حميد سعيد (وهو الشيخ حميد سعيد الغاوي، ذكر عنه إنه شيوعي خطر وهو تاجر)، مسلم مهدي (ذكر عنه إنه صاحب معمل نسيج)، جهاد حسن، وهاب عبد الأمير، الصائغ الياهو)، والأخير سرد عنه تفاصيل كثيرة ربما بسبب كونه يهودياً، وفي مفارقة تبدو لي ذات دلالة خاصة بحاجة الى تأمل، لم يذكر عبد الجبار أيوب أن حلياً نبذ الشيوعية، في حين وضع تلك العبارة أمام أسماء البعض من المعتقلين، مفصحاً عن دوره في تحقيق ذلك بقوله (وقفت لهم بالمرصاد أناهضهم حتى أرغمت منهم الانف، ومرغت جباههم في الوحل، وتركتهم صعيداً جزراً لكل من هب ودب، ونكالاً لكل معتبر له عقل وبصيرة وإدراك، فهؤلاء هم الشيوعيون وعصابة أنصار السلام)، وأشار أيضا الى أن المعتقلين قد (أطلق سراح بعضهم وبقي الآخرون يرسفون في السلاسل والقيود جزاء لما ارتكبوا من أوزار وآثام في حق شعبهم ووطنهم ودينهم فقد أوغلوا في إفساد الطلبة والكسبة والعمال والفلاحين واقلقوا بال الحكومة، وقد عانيت في تقويم أعوادهم من العنت ما الله وحده به عليم).

ومن المفارقات المثيرة أن السيد عبد الجبار أيوب لم يتطرق في كتابه المذكور بأي كلمة إلى الشيخ عبد الكريم الماشطة أطلاقاً، وهو يعرف جيداً بأنه من مؤسسي حركة أنصار السلم في العراق، وقائدها ومحركها الرئيسي والداعم لأنشطتها في مدينة الحلة، ومعظم اجتماعاتها تعقد في داره، بل على العكس من ذلك أسرف في كتابه المذكور بكيل المديح الى أبناء شقيق الشيخ، المحامي عبد الجليل الماشطة، والطبيب عبد الرحيم الماشطة، وهم ليسوا ببعيدين عن الحركة الوطنية في الحلة ولا خارج أنشطة حركة أنصار السلم، وما من تفسير شاف لذلك غير غرائبية المفارقة،١٠ وفي الغالب أنه حاذر المساس بالشيخ الماشطة لمكانته الاجتماعية ومنزلته في نفوس الحليين.

ومن الجدير بالذكر أن حركةَ أنصار السلم العراقية بالإضافة الى دورها في معاضدة قضية السلام العالمي، شاركت القوى الوطنية نضالاتها في مقارعة السلطة الرجعية للنظام الملكي، ومناهضة على وجه الخصوص المساهمة في تشكيل جبهة الاتحاد الوطني ١٩٥٧، حيث انتدب عضو مجلس السلم العراقي الحاج عبد اللطيف الحاج محمد مطلب ممثلاً عن المستقلين في فرعها بمدينة الحلة.

المؤتمر الثاني

بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فاز الشيخ الماشطة بعضوية المجلس الوطني لأنصار السلم في العراق بعد إجراء الانتخاب في المؤتمر الثاني الذي انعقد ببغداد صباح يوم ١٤ نيسان ١٩٥٩، وقد تليت في افتتاح المؤتمر كلمة الشيخ عبد الكريم الماشطة، وبالرغم من كونها كلمة قصيرة إلا أنها معبرة عن معان سامية، وفكر إنساني، ومشاعر نبيلة، مستمدة من مبادئ رسالة الإسلام الجليلة، استنهض أنصار السلام المؤتمرين بالعمل لخير الإنسانية، نورد نصها فيما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم يا أنصار السلام يا من تحبون الخير للإنسانية عامة ولبلادكم خاصة، أرجو لكم من الله التوفيق في أعمالكم، وان يمكنكم من خدمة أبناء النوع الإنساني عامة، ولا بد أن تحبوا الله وتحبوا جميع عباد الله لان من يحب الله يحب آثاره، والله تعالى يباهي بكم الملائكة على معاونتكم لإخوانكم واهتمامكم بردع الحروب وتخليص البشرية من ويلات القنابل الذرية والهيدروجينية وختاماً أقدم تحياتي لكم جميعاً وخصوصاً الوفود القادمة من البلاد العربية الشقيقة وسائر البلدان الصديقة الأخرى والسلام عليكم.

ومن خلال التمعن في كلمة الشيخ الماشطة يمكننا تلمس عمق إيمانه بمباديء السلم التي نظر لها بصفتها قضية تهم الإنسانية جمعاء، غاياتها تصب في خدمة النوع الإنساني، ومتوافقة مع القيم التي نادى بها الدين الإسلامي، ومن هذا المنطلق يتبين لنا مدى اندفاعه طيلة حياته، وتسخير طاقاته للقيام بنشاطات في خدمة هذه القضية النبيلة. وفي تلك الفترة حرص الشيخ الماشطة على تعبئة الرأي العام في دعم ومناصرة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، مجسداً على ارض الواقع شعار(السلم وصيانة الجمهورية) الذي تبنته حركة السلم في العراق في مؤتمرها الثاني المنعقد في ظل أجواء الحرية والديمقراطية.

تكريم مجلس السلم العالمي

نال الشيخ الماشطة تثمين وتقدير حركة السلم العالمية إذ انتخبته عضواً في مجلس السلم العالمي، ومنحته الوسام الذهبي في الذكرى العاشرة لتأسيسها تقديراً لجهوده المتميزة وخدماته الجليلة في سبيل السلم العالمي١٣ ، وقد احتفت حركة السلم في العراق في بغداد بعد وفاة الشيخ الماشطة بأشهر معدودة بمناسبة تسليم وسام مجلس السلم العالمي المخصص له، وجعلتها في الوقت نفسه مناسبة للاحتفاء بذكراه، وقد تسلم الحاج عبد اللطيف مطلب، رفيق دربه وعضو المجلس الوطني لأنصار السلم في العراق، الوسام المذكور وسلمه بدوره الى عائلة الشيخ.

أزمنة الشعراء وأزماتهم

شاكر لعيبي

في الحديث عن أزمة مستعصية في الشعر، لنقل أن على الثقافة العربية الوثوق قليلاً، بنفسها، وبشعرائها. ما عدا ذلك فكأن الأمر يتعلق بموت الثقافة والظن بعدم قدرتها على إنجاب الأبناء الشعراء البررة. هذه البداهة ذات نتائج خطيرة. إذا كان هناك القليل من الثقة والصبر في مطالعة المشهد الشعري الراهن، فيمكن القول أن لا توجد أزمة شعر أو شعراء، لأن كثرتهم وكثرة الغث بينهم لا تبرهن على أزمة وكانت كثرة غثهم قاعدة تاريخية ثابتة. توجد أزمة فحص نقدي وأزمة حقيقية على مستوى القراءة، أي على المستوى الثقافي العام. وهذا ما تبرهن عليه شحة حجم المطبوع والمقروء في العالم العربي وانحساره لصالح أسوأ أنواع الثقافات البصرية المرئية، الأمر الذي لم يقع في ثقافات متأصلة نقدياً ومعرفياً.

يغيب الناقد والقارئ للشعر على حد سواء، أي يغيب الحسّ النقديّ القادر على فرز الشعرة من العجينة. وهذا يسمح بجميع أنواع الأحابيل النثرية والأكاذيب الشعرية: مثل صعود شعراء نجوم لا يستحقون نجوميتهم، ومثل ظاهرة طباعة المجاميع الشعرية (بل الأعمال الشعرية الكاملة) على الحساب الشخصي لمؤلفيها أو ظاهرة الشعر النسوي الإيروتيكي الضارب خبط عشواء، أو ظاهرة قصائد نثر باهتة أين منها أسوأ أنواع الشعر المترجم، وغير ذلك من الظواهر. يتملك المرء بسبب هذه الظواهر فاسدة المعنى انطباع قوي عن أزمة في الشعر وغياب للشعراء الحقيقيين. يتوجب مراجعة هذا الانطباع وشجبه.

ثمة فقدان ثقة بديوان العرب عموماً، لأن هذا الديوان غير موجود موضوعياً الآن بكل بساطة. ولأن العرب فقدت الثقة بالحرف المكتوب أو المنطوق الذي طالما خيب آمالها. على أن هذه العمومية في التوصيف لا تشفي غليلاً. وبدلاً عنها لنتحدث بدقة عن المشكلات المهملة الأكثر التباساً، ولنتكلم بطريقة أقل غموضاً مما تعودنا عليه عادة.

ثمة شعراء يمشون عكس الموجة ولا تهمهم لا بهرجة المصطلح الحداثوي المُعاد على كل لسان من دون تدقيق، ولا آليات الميديا لأنهم في أحيان كثيرة غير قادرين على الدخول في أجوائها الموسوسة. يحتاج الشاعر الذي أزعم وجوده إلى رافعة نقدية مازالت تعاني من خلل فادح. وإذا ما وجدت فليست صاحية الضمير دائماً، أو يستثمرها القلة وتستثمر بدورها الشروط الثقافية العامة المرتبكة في الثقافة العربية. ثمة وفرة من الشعراء الزائفين الزائلين الذين يغطون اليوم على الأصوات الأصيلة الناضجة، ولا شفاء لذلك إلا بالزمن، ولعله سيدوم طوال حياة إنسانية كاملة، طوال ظلم طويل.

لا أزمة في الشعر. ثمة أزمة في الحياة الثقافية مقطعة الأوصال في العالم العربي التي لا يستطيع الشاعر الحقيقي، الذي أزعم بثقة وجوده بين ظهرانينا، إيصال نصوصه فيها بشكل متوالٍ متواصل لتدلل على نفسها بنفسها وتشير إلى طريقة تطوره الجمالي. لا يستطيع اليوم شاعر جيد طباعة ناهيك عن توزيع ديوانه الشعري في هذا الشرط. ثمة بلدان مكتفية بنتاجها الشعري مثل مصر التي لا تدعو إلا نادراً شاعرا عراقياً مثلاً إلى ملتقياتها. لم يكن ممكناً دخول شاعر سوري إلى العراق، لا عبر شخصه ولا بكتبه، والعكس بالعكس طوال ثلاثين عاما وإن بتقطع زمني، ليكون الانطباع الطاغي في بغداد أن دمشق لم تنجب سوى بضعة شعراء مبدعين: ممدوح عدوان ونزيه أبو عفش وعلي الجندي. مقطعة الأوصال إلى درجة أن المنافي نفسها تمنع هذا الشاعر البارع المزعوم من التواصل السليم مع قرائه العرب. إذا لم تدعَ البتة إلى مهرجانات مثل جرش وكاراكاس ولوديف لأسباب لا تعرفها، ولم تترجم إلى لغة حية أو ميتة لأسباب تعرفها، ولا توجد مؤسسة ثقافية تدعم بالفعل فعلك الشعري لأن قدر الشاعر في بلدنا يشاء له ذلك، ستكون إذن مقذوفا وحدك في صراع جبابرة الظاهرة الشعرية في العالم العربي، وسيقال لك أن ثمة أزمة في الشعر وغياباً مطلقاً لشعريتك الافتراضية. هذا المنطق البارد لا يستوي مع سخونة الواقع، ويستوي فيه الأعمى والبصير، وستقارن فيه شويعرة من قَطَر، دفعتْ ثمن طباعة كتابها وأجور بريده لكي يصل الصحافة البيروتية، مع شاعر حقيقي لا يفعل من ذلك إلا أقله، وسيمنح الانطباع عن خواء سائد في عالم الشعر العربي اليوم.

ثمة اليوم شعراء سيبرهن الزمن ببطء قاتل على شعريتهم يقيناً، لا يريد النقد فحصهم كما يتوجب، وينصرف لكبار السن المؤسسين الذين يستحقون من دون الشك توقفات تأملٍ ونقدٍ مطوّل شرط أن لا ينحصر الأمر بهم فحسب. لنطالع أي كتاب أو مقالة في نقد الشعر، لن نجد إلا أسماء بعينها. إذا ما أُلحقت بها أسماء أخرى فقد وقع ذلك لأسباب ليست دائماً من طينة شعرية بل طبيعة تتعلق بالعلائق الشخصية واستعارات الإعلام ومجد الإشاعة الثقافية وحذلقة النزعة النسوية التي هجمت علينا من دون سابق إنذار (ونحن بطبيعة الحال من أنصار المرأة والمتولهين بها قبلها). في أحيان كثيرة، لا تصل كل مجاميع الشعراء البارعين إلى النقاد والقراء لأنهم لم يطبعوا لدى دور نشر كبيرة أو لأنهم متفرقون في المنافي الأوربية الواسعة. بعض هؤلاء الشعراء المعنيين يرفضون إرسال كتبهم الشعرية للصحافة أو للسادة النقاد الذين تعودوا بدورهم على استلام الكتب مجاناً خاصة المتعلقة بالشعر منها.

الوحيدون من بين كل الشعراء في العالم، على حد علمي، ممن لا يعترفون البتة بمن يأتي بعدهم هم الشعراء العرب، في دورة أزلية: كلما كبر جيل زمنياً ظن أن عليه تأبيد عظمته وحدها ونفي الشعراء الآخرين إلى قارة العَدَم المطبق. هذه الدورة لا تحدث حرفياً مثلما نصفها هنا، لكن المسعى محموم لجعلها القاعدة الذهبية. وللأمر تمفصل سوسيولوجي عالجناه في مكان آخر. كل هذا يوطّن الانطباع المذكور أعلاه عن وجود أزمة في الشعر والشعراء، ففي هذا المنطق لا يوجد عداي، وما سواي يعيش أزمة خانقة وليس بشاعر أبداً.

هل يتابع عبد الله الغذامي الشعر الجديد برصانة الناقد الذي عُرف به؟ ولماذا لا يكتب عبد الله إبراهيم في نقد الشعر؟ لماذا توقف عباس بيضون عن عروضه النقدية الممتعة للمجاميع الشعرية الجديدة؟ ولماذا لم تعد معالجة النص الجديد تعني يمنى العيد؟

ومن هو محمود البريكان؟ وأين خالدة سعيد؟ ومن قرأ بالفعل حسب الشيخ جعفر؟ ومن هو عقيل علي؟ وماذا أنجز مريد البرغوثي؟ وما هي خصوصية زكريا محمد؟ ولماذا لا يجري التوقف أمام ظاهرات شعرية كثيرة جديدة تماما وبالجدية اللازمة ؟ ولماذا لم نقرأ دراسة رصينة واحدة عن شعر فوزي كريم؟ ومن يقوم باستدعاء الشعراء إلى مهرجانات الشعر العالمي؟ وأين هي النخب الاجتماعية إذا لم تهاجر ثقافياً وفيزيقياً إلى الغرب؟ وكيف يبرهن الشعراء المجيدون، الموجودون بكل ثقة، عن أنفسهم، إذا حجبت عنهم المنابر الأساسية؟ أليس مريباً أن يكون الشعراء الأكثر شهرة من الجيل الجديد هم من المحررين الثقافيين في الصحافة؟ الغالبية المطلقة من الشعراء العرب ليست هي من يكتب أسبوعياً نصف صفحة كاملة في صحيفة عربية معروفة واسعة الانتشار، عن مشروعها الشعري والنقدي.

مثل هذه الأسئلة جوهرية.

يبرهن تاريخ النقد في العالم أنه متراجع غالباً عن الظاهرة الشعرية الأصيلة، بل كانت تسبقه واحتاج في حالات كثيرة لسنوات وعقود من أجل إعادة اكتشافها. نتكلم عن نقد متأسس تاريخياً، وليس عن إعادة استهلاك للنظرية النقدية الغربية أو القيام بعمل تطبيقات لها في أحسن الأحوال كما هو الحال في ثقافتنا. من المستحسن في يقيني قراءة المصادر الأصلية في نقد الشعر التي يغترف منها نقادنا الأفاضل بلغتها الإنكليزية والفرنسية، بدلاً من قراءتها مستعادة ومؤولة على أيديهم الكريمة البيض.

لا توجد أزمة لا في الشعر ولا في الشعراء، لا يُقرأ الشعر فحسب بالعين التي يستحق لأسباب لا علاقة للنصوص بها.

جامعة قابس ٢٠ تموز ٢٠٠٥